# اللغة العربية وأشكال الهيمنة الجديدة

د. بومدين بوزيد –الجزائر–*

تشكّل اللغة بداية التفكير والعلاقة مع الوجود، أو بتعبير بعض الفلاسفة السّكن الذي نعيش فيه أو الذي نجاوره، كما أنّ فهم الحياة والانطلاق تحويه المفردات والتراكيب والجمل، وقد شكّلت اللغة العربية علاقة مباشرة بالمعيش وبالطبيعة، وبقي وهج الحياة في المفردة وطريقة صرفها وبنائها، وقد كانت عامل إثراء للمخلية والعودة التي حاولها الكندي «ت 267هـ» الفيلسوف العربي الأول إلى اللغة العربية في نحت مفاهيم مقابلة للمصطلح اليوناني تعتبر التجربة الأولى في تجاوز إشكالية نقل المفهوم من عالم لغوي ـ ثقافي أجنبي، ومن حقل دلالي لحقل جديد، كما أنّ التجربة الأولى الحضارية أظهرت القدرة العربية على استيعاب علوم الآخرين وترجمتها ضمن دلالات تنتمي للحقل الثقافي العربي – الإسلامي، وهنا كانت القدرة اللغوية بقدرة الناطقين بها، في عميلة استيعاب المعرفة، مما يؤكد العلاقة بين تطور اللغة والتحصيل المعرفي والحضاري، وأن قوّة أية لغة ليس في معجمها وتركيبها فقط، ولكن في قدرة أهلها على التعايش مع الثقافات الأخرى، وسيطرتهم على المعرفة والواقع، ومن هنا فالبقاء عند مدح اللغة العربية أو رثائها وتعداد خصائصها سوف لن يكون خطّاً دفاعياً مجدياً أمام التطور اللغوي الحاصل في العالم، والذي تصاحبه هيمنة إعلامية ـ لغوية، وإنما في تطوير هذه اللغة واستشراف مستقبلها وتجاوز الصراعية التقليدية التي يتحدث عنها البعض كاللغة العربية والدارجة مثلاً.

إذا حاولنا العودة إلى الصفة الأساسية التي تتميز بها كلّ لغة في أوجّ إبداعها الحضاري هو الحياة والانطلاق والثقة بالنفس، وهو ما ميّز العربي ـ المسلم في كتابته وتفكيره وإبداعه باللغة العربية، وهنا يكون البحث في أصول التفكير والعلاقة مع الطبيعة والله من خلال المفردة وطريقة تركيب الجملة وكيف تطور ذلك وصولاً إلى عصر التدوين وازدهار الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري الذي كان قرن أوّج التطور الحاصل في العلوم العربية النقلية والعقلية، لا لنكتب نصوص فخر باللغة ولكن لنستشفّ التجربة الحياتية للغة العربية، فالعلاقة مع الحياة والتعبير عنها هو الذي يُخصب اللغة ويُفجّر غناها وقد قال غوته: «النظرية رمادية يا صاحبي أما شجرة الحياة فتبقى خضراء مدى الحياة» وقال أيضاً «إن الذي لا يعرف لغة أخرى لا يعرف لغته الأم» فاللغة هي التعبير عن هذه الحياة واخضرارها هو تطورها والإبداع بها.

* باحث جامعي ـ جامعة وهران ـ البريد الإلكتروني:

boumzid@gmail.com



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا كانت اللغة العربية بداية الانطلاق والعلاقة مع الحياة في بيئة حضارية اجتماعية في العصور الذهبية للحضارة الإسلامية، أي أنّ اللغة أبدعت عالماً متميزاً ثم تغيرت العلاقة لتصبح مقيدة بتصورات لغوية ـ فلسفية ـ مذهبية تمنعها من التجديد والاجتهاد وإعادة الانطلاق في العلاقة مع حياة جديدة؟ أم أنّ وسائل الهيمنة الجديدة بدءاً من الهيمنة الاحتلالية واللغوية والثقافية وصولاً اليوم إلى هيمنة وسائل الاتصال والمعرفية الجديدة عامل آخر يعيقها عن التطور والخلق وإنتاج الحياة؟ أم أن العاملين مترابطان ؟ أي كون طبيعة اللغة التي صارت ضدّ ذاتها ومنعتها من التجديد هي الاستجابة الذاتية لهذه الهيمنة الثقافية والنفسية؟

إن الدراسات المعاصرة في مجال اللسانيات وفلسفة العقل التي تستفيد من دراسة الجهاز العصبي وعلاقته باللغة والتفكير والحياة النفسية يؤكد على أن اللغة صانعة العالم « المعيش » أي أنها عملية سحرية ولكنها تخلق في نفس الوقت تنميطًا سلبيًا يقيد التفكير ويشوش العلاقة مع الحياة وهنا نحن أمام عملية تبادلية في الإيجاب والسلب كيف ذلك؟

سنحاول طبعاً أن نتحدث عن إمكانات اللغة العربية في تجاوز النمطية السلبية التي تخلقها هي ذاتها والبحث في كون الوسائط المعرفية والاتصالية ستكون عامل قوّة في تطور اللغة العربية طبعاً إذا توفرت عوامل أخرى مصاحبة لهذا كالإرادة السياسية في جعل اللغة العربية التعبير الحياتي والعلمي لمجتمعاتنا مثلاً ، وسنحاول أن نقرأ ذلك في ضوء اقتصاد المعرفة الذي يقوم أيضاً على إشاعة المعرفة والقيم الإنسانية باللغة التي يتحدث بها المواطنون .

اللغة ليست تعبيراً فقط عن العالم ولكنها تخلقه هنا سحريتها، فنظام الرموز الاتصالية واللغة على وجه الخصوص لها دوران أساسيان متضادان كشفت عنهما العلوم الحديثة التي تعنى بماهية هذه الوسائل ووظائفها وآثارها، وإن تطبيع العرب في القرن العشرين الحادي والعشرين لعلاقتهم باللغة العربية هو السبيل الطبيعي لكي تصبح لغة الضاد لغة العصر والحداثة على اعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية واستعمالها هو الذي يجعلها لغة علم وتكنولوجيا، فقد تكون الهيمنة المادية هي الطريق إلى الهيمنة اللسانية ومن ثمة الثقافية والفكرية وقد يحصل العكس فتكون الهيمنة اللسانية هي البوابة العظمى على باقي مقدرات الشعوب، إن الصراع اللساني والهيمنة السياسية خطران قد تترتب عنهما خرائط جغرافية وسياسية بشرية لم تكن موجودة في السابق أي قبل الصراع[1] .

(1) عبدالحميد عبدالواحد، اللسان العربي، وإشكالية التلقي، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 69



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

## اللغة والتقنيات الجديدة

إن تقرير الواقع هو الوظيفة الأكثر أهمية للغة، وتقرير الواقع هو تقرير ما هو صادق أو كاذب، فالإنسان يولد ولديه ما يسمى بالغريزة اللغوية، وهذه الغريزة لا يمكن فصلها عن قدرة الإنسان على التفكير وطريقته في اكتساب الخبرات بحسب تشريح الدماغ البشري، فدراسة بيكرتون[1] ربطت الإدراك البشري باللغة، فامتلاك الإنسان للغريزة اللغوية هو الذي مكنه من السيطرة على العالم مقارنة بالحيوانات الأخرى التي لم تتمكن من ذلك نتيجة افتقادها هذه الغريزة.

فهي نظام تمثيلي وليست وسيلة للتواصل فقط كما يعتقد بعض الباحثين وهذا ما يجعلها مصدر الإدراك البشري الفريد لا نتيجة له، إن بنية الإدراك البشري وطبيعته كان لهما الدور الرئيس في هذه السيطرة وهي فرضية تؤكدها شواهد كثيرة من الدراسات التطورية، التي عنت بالسلوك الحيواني بما فيها سلوك الإنسان.

أما أرنست كاسيرر فقد قسّم الأشكال التي يتجلّى فيها الرمز إلى أربعة : اللغة، والأسطورة والدين والفن، الرمز أعمّ من اللغة، فالرمز يحتوي اللغة، واللغة أحد أشكال الرمز، وقال الإنسان حيوان ذو رموز، وظاهرة التفاعل الحضاري يميزها اليوم سرعة الانتشار وقوة الاحتكاك وفقدان التوازن بين الثقافات المتلامسة، ومن هنا قال **إميل بانفينيست** : «إن انطلاق الفكر يرتبط بمقدرة الإنسان وبشروط ثقافته العامة وبتنظيم مجتمعه أكثر من ارتباطه بطبيعة اللغة، وهو ما جعل ماكس فيبر يرى أن الإنسان ينتج رموزاً ثم يتشبث بها، ومن فكرة الهوية تتحول إلى ثبات وجمود.

وهنا نذكر كذلك سعي بعض الإستراتيجيين وعلماء الاجتماع والسياسية إلى استثمار التطورات الحاصلة في مجالين علميين أساسيين : التقنية المعلوماتية والتقنية الحيوية « البيولوجية »، الأولى ترتبط اليوم ليس فقط بالمجال ألأداتي لتكنولوجيا المعلومة ولكن أيضاً باستخدام ما نجم عنها من مجتمعات جديدة تسمى « مجتمعات المعرفة » : أي التي صارت فيها المعرفة الاقتصاد الجديد بدلاً عن الأشكال التقليدية للثروة، أما الثانية فهي تنهل من الأولى وتختلف عنها أيضاً في كونها تقوم على تغيير الجينوم « الجينات » وبالتالي التدخل المباشر في الكائن الحي عبر ما يسمّى الاستنساخ، وكلتا التقنيتين يسعى ممتلكوها لتطوير ما يسمّى بمجتمعات ما بعد الرأسمالية ، في حين يرى فلاسفة تاريخيون أن التقنية الحيوية ستدفعنا نحو مستقبل ما بعد البشري، والقصد هنا أن التطورات ستسمح بإطالة العمر الإنساني وكل الناس في صحة

(1) ديرك بيكرتون، اللغة وسلوك الإدراك، تر:محمد زياد كبه، جامعة الملك سعود، سمة 2002، ص 32.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعافية وسيزداد التنافس الاجتماعي في قضايا لم تكن سالفاً موجودة وهنا يختفي معنى القيم الإنسانية المشتركة والرغبة والأمل والسعادة، فالسعي مثلاً نحو حرية الآباء في اختيار الأبناء والحرية في استخدام هذه التقنية في الثراء المادي التي توفرها التقنية الحيوية يؤدي إلى عكسها وهي أن نصبح رهائن، ومن هنا يرى بعضهم مقولة تدخل الدولة وهيمنتها ضروري لإبقاء الحرية الحقيقية والدفاع عنها، والحرية هنا التي تنطلق من كون جوهر الطبيعة الإنسانية حر أو أن الطبيعة البشرية الأصلية تقوم على احترام الحريات والحق الطبيعي يلزم عنه الحق في الوصول إلى السلطة والمشاركة فيها، في السبعينات من القرن الماضي كان تصور خوفي عند بعضهم من كون التقنية المعلوماتية الجديدة ستجعل الأنظمة أكثر مراقبة وفتكا واستبدادا بشعوبها ولكن ما وقع كان عكس تمام ذلك، إذ أن هذا التطور سمح للصوت المعارض أن يكون له صداه، وللصورة أن تنتقل عبر العالم إلى أن وصلنا اليوم إلى «المدونات الشعبية» على الويب التي لا تخضع لرقيب ولا حتى للأخلاقيات المهنية المتعلقة بالإعلام أو بغيره من المهن التي ترتبط بها، وهذا ما جعل بعضهم يطلق عليها تسمية « تقنيات الحرية»، أما التقنية الحيوية فهي تشكل هاجس خوف عند بعض المراكز الغربية أحياناً شبيه بهاجس التقدم العلمي النووي وكيف ينبغي التحكم فيها ومراقبتها كونها تتعلق مباشرة بالتغير الذي يصيب الإنسان بيولوجياً ومن المخاطر التي تحدق بالبشرية هو في تغيير الطبيعة البشرية، ولكن من جهة أخرى يستثمرون هذه التقنية الحيوية في زيادة انتصار الليبرالية والدفاع عن الحريات والمساواة، وهنا وجب الإشارة إلى أن الليبرالية مع زيادة تطور العلم والتقنيات الجديدة تسعى لأن تخفّف من الشحنة الإيديولوجية، أي العقائدية وتركز على الحريات الأساسية وقيم المواطنة والديمقراطية، فنظام الحكم الأمريكي وقوانينه الدستورية أقيم منذ 1776 م على الحق الطبيعي للإنسان، في المساواة والعدل، حتى ولو كان تاريخها مرّ بأزمنة خروج عن هذا الحق الطبيعي والدستوري ولكن كانت الرغبة السياسية والشعبية والتاريخية هي المنتصرة اليوم، ولو جئنا للمقارنة فإن التهديدات المحدقة بالغرب المتقدم كالإرهاب البيولوجي وغيره هي تهديدات أساسية عندها وتأخذ الصبغة العالمية كوننا نحن معنيون بها كذلك سواء من حيث كون العالم واحد اليوم وصغير أم من حيث كون الرقابة التي ستزداد على أبحاثنا ومنشآتنا وهي رقابة تمسّ أيضاً الاقتصاد والسياسة، غير أن التهديدات التي نعني منها نحن في بلداننا العربية وهي الهمينة اللغوية وتعرض الهوية للتمزق ومن هنا يكون تدخل الدولة هو حماية الهوية، فالأزمة المالية اليوم التي عصفت بأمريكا وأوربا والعالم وحالة الركود في مؤشرات الأسهم استدعى تدخل الدولة ومراجعة الحرية الليبرالية المطلقة، إننا نحن أمام منزلقات تتعلق بقضايا الهوية واللغة وخسراننا في هذه المجالات هي خسارة في الاقتصاد



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والسيادة، فالعلاقة بين الاستقرار الاجتماعي والنجاح في تكوين مواطن صالح واللغة يجعلنا في منأى عن صعوبات التفقت الأسري والاجتماعي مستقبلاً.

كما أن اللغة العربية علم رياضي منطقي، يقوم على فكرتي الثوابت والمتغيرات وقواعد اللغة مرتبطة بقوانين المنطق. وعلينا أن نعود بلغتنا العربية إلى أصالتها، ونكشف عن جوهر المنهج الرياضي الذي تأسّست عليه، وننطلق في دراستنا من هذه الأسس العلمية، فنحقق غايتين رئيستين: أولاهما العودة بالفكر العربي النحوي إلى أصالته، وثانيتهما طرح قضايا النحو بشكلٍ علمي، يزيل عنها عملية التلقين التي أبعدت أبناء العربية عن النحو العربي، صارت نظرتهم إليها نظرة فوقية، أو نظرة عداء؛ لأنّ الإنسان عدو ما يجهل، فإذا انكشفت أمام الراغبين في دراسة اللغة العربية العلاقات المنطقية، وفهموا المنهج الرياضي الذي تأسست عليه، سهل التعبير بها[1].

إن مواجهتنا لتحديات العولمة لا تكون برفض دخول ألفاظ غير عربية إلى لغتنا، لأنّ هذه اللغة أثبتت قدرتها على التطويع والاكتساب، وستبقى قادرة على الجديد المؤسس على أصالة لغوية مصانة بقوانينها النحوية، التي تحفظ لها نظامها، وبناءها وخصوصيتها.

## من تحرير الهوية إلى الأمن الثقافي

تعرضت الشعوب العربية إلى تمزيق شامل لم يمسّ أراضيها وثرواتها فقط ولكن هويتها وشخصيتها أيضاً، وقد شكلت المدارس التقليدية والإصلاحية في الجزائر مثلاً دفاعاً متقدماً لحماية اللغة العربية، وهي حماية ظلّت تعتمد المقاومة التقليدية، ولم تتطور هذه الحماية بعد الاستقلال سواء على المستوى تطوير اللغة والبحث بها في مجالات العلوم والتقنيات أم في أن تكون تعبير الفئات النخبوية المسيطرة في المجال السياسي والاقتصادي والإداري، كما أن فقدان إرادة سياسية حقيقية في عملية التعريب وحتى مراجعة مسائل التعريب ومفهومه لم تتمّ إضافة إلى عوامل أخرى أبقت العربية غير محرّرة هو ما يشكل استقلالاً مبتوراً، كما أننا أمام حالة « لا أمن لغوي جديد » أمام هيمنات جديدة في العالم اليوم، هذه الهيمنة تتسم بتسويق السّلعة مع الأذواق والتحكم في المجال الإدراكي للمواطن العربي من خلال اللغة الأجنبية التي تصاحب السّلعة « الاقتصاد » و »الهيمنة السياسية والثقافية ».

هكذا اليوم اللغة ترتبط في مجتمعات المعرفة بالشّكل المادّي وتكون جزءاً من الهيمنة، في مجتمعات الاتصال والثورة الرقمية، العلاقة بين مصادر القوة والتعبير اللغوي ستجعلنا نتجاوز ربط اللغة فقط بالإيديولوجيات والمعتقدات إلى كونها معرفة وجزء من القوة الاقتصادية الجديدة،

1 ) مها خير بك ناصر، اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي، مجلة التراث العربي، العدد 102، 2006، ص 26.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أي أن التبعية اليوم ستكون محدّدة بالتبعية المعرفية وعلى رأسها المسألة اللغوية، اللغة هنا وسيط تجاري وسلعة، هي سلعة واستهلاك فهي التي تحدّد الذوق وتصاحب السلعة وبسط النفوذ السياسي وبالتالي المسألة مركبة وبدل أن نبقى عند إشكاليات الثنائيات في تناول اللغة: كاللغة كعلاقتها بالتفكير أو مثل قضايا الفصحى والعامية، وما يشابهها سنكون أمام اللغة والاقتصاد ، اللغة ومجتمع المعرفة، وسيصير اليوم القرار السياسي في قضايا التعريب وحماية اللغة العربية مسألة تتعلق بالسيادة والخروج من التبعية وحماية الاقتصاد الوطني.

إن المسيرة النهضوية التي انطلقت في القرن التاسع عشر ميلادي تميزت بنهضة علمية، فقد حضر وفد ياباني لمصر في سنة 1834 م لدراسة جعل العربية لغة الطب والعلم والتقنيات[1]، فكانت العلوم الطبية مثلاً تدرس باللغة العربية في قصر العيني بالقاهرة حتى احتلال الجيوش البريطانية لمصر سنة 1892م، وتحول التدريس إلى اللغة الانجليزية ثم كان المشروع الصهيوني استعمار الشعوب العربية ممزقاً لأرضها ومستغلاً لثرواتها وممزقاً لهويتها، ثم تلا ذلك رغم استقلالها الشقاق العربي ـ العربي، واحتلال أمريكا للعراق وللسوق العربية، وزيادة نشاط المنظمة الفرانكفونية ونخبها في بلدان شمال إفريقيا وكان لهذا كلّه الآثار السلبية على اللغة العربية وعلى تطبيق قرارات التعريب في بعض البلدان العربية، طبعاً إضافة إلى كون حالة الخمول والانتكاسات التي أصابت مسيرة النهضة العربية فجهود البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين لم تستمر في تطوير اللغة العربية وبقي ربط اللغة بالتعليم الديني وبمجالها النحوي والصرفي وبتصورات القداسة عاملاً آخر من عوامل الإخفاق في تجديد اللغة العربية والدفع بالنخب نحو الإبداع بها، ومع التطورات الحاصلة اليوم في مجالات تكنولوجيا المعلومة والاتصال وزيادة نفوذ الهيمنة اللغوية تتراجع عملية التعريب في التعليم العالي سواء في المغرب العربي أم الخليج العربي الذي تختار بعض مؤسساته العلمية الإنجليزية كلغة أولى، وتسعى شركات الاتصال وصناعة الأجهزة الهاتفية فرض اللغة الأجنبية سواء في نصوصها الاشهارية أم طابع الاستعمال للجهاز التقني فالهاتف الجوال مفروض استعماله بالحروف اللاتينية[2] فالمواطن المغاربي مجبر على تقديم تهاني العيد والتعزية والتحيات عبر نصوص موجودة مخزنة في هاتفه المحمول باللاتينية أو يستعمل دارجة مكتوبة بأحرف أجنبية، وهو مظهر من مظاهر عولمة جارفة تأثيرها يتعدّى ما يعتقده البعض تأثيرا لغويا عاديا إلى تغيير في الذوق والعواطف والعلاقة مع التاريخ والهوية، كما انّ ذلك يشكّل مسّاً بالسيادة الوطنية حين لا تنصص في عقود الشراكة

(1) عبدالكريم خليفة، قضايا العربية على مدارج القرن الحادي والعشرين، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة، عدد 93، ص 97.

(2) محمود الذوادي، الهاتف الجوّال والحاسوب: ترسيخ التخلف الآخر في المجتمعات المغاربية، مجلة «المستقبل العربي»، عدد 98، أكتوبر 2008، ص 97.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والاستثمار على اعتبار اللغة العربية لغة للإشهار وتزويد الأجهزة التكنولوجية برموز عربية، وهو تساهل مقصود وتفريط تهاوني أحياناً مثل القوانين التي تجبر على كلّ مؤسسة إعلامية أن تصدر إلى جريدة بالعربية إن كانت تصدر نسخة بالفرنسية ولم يطبق هذا القانون مثل قوانين أخرى كاستعمال العربية في جلسات المحاكم، وهنا نتسائل في حيرة فبرغم المقروئية بالعربية للجرائد المرتفعة السحب في الجزائر تبقى النخب الإدارية والاقتصادية مصرّة على التعامل مع المواطن باللغة الفرنسية بل سنكون مستقبلاً أمام مؤسسات جامعية خاصة تنتهج الفرنسية كلغة وحيدة للتعليم في عصر لم تستطع فيه هذه اللغة أو لغات بلدان أوربية أخرى منافسة للإنجليزية في فيض مصطلحاتها العلمية والتقنية وفي سيل الدراسات الجديدة بالآلاف سنوياً كما يضطر اليوم الباحثون الفرنسيون إلى كتابة بحوثهم بالإنجليزية من أجل الاعتراف العالمي والعلمي.

إننا نواجه حملة شرسة من الشركات الأجنبية ومن العقود الرسمية في التعاون العلمي مع فرنسا بالخصوص، وهو ما سيؤدي إلى تنميط الذوق وتنشيط الخيال باللغات الأجنبية وهي مداخل لهيمنة واضحة، وليس صحيحاً أن التعلق بلغة وحيدة أجنبية ينقذنا من سطوة الهيمنة فاللغات وتعلمها والترجمة منها إلى العربية وتطوير هذه اللغة وجعلها اداة رسمية وعلمية هو الذي يحفظ استقلالنا وأمننا الثقافي ويضمن إشاعة المعرفة وتبسيطها للمواطنين وهنا نكون أمام ضمانة لغوية لبناء مجتمع عصري قوي ودولة مؤسسات قويّة.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com